الصوراتية المقلوبة: عقل تواصلي أم موضة ما بعد كولونيالية؟

أ.د. وحيد بن بوعزيز
جامعة الجزائر 2

"مارست الكتابة علي فعلا تأثيرا قسريا،خصوصا منولوجات النقيب أندرياني، حرصت أن يكون خطاب النقيب الراميإلى تبرير التعذيب أن يكون خطابا عقلانيا تماما وأن يكون من المستحيل على حد سواءعلى المرء أن يقبله او أن يدحضه"

حوار جيرار فيراري مع ستيفاني جوليفي موقع الثقافة سبتمبر 2010

الملخص:

تحاول هذه المقالة التعرف على الطريقة التي عالجت بها النصوص التخييلية مسألة التعذيب في الجزائر. لقد تطرقت لهذه القضية الكثير من النصوص التاريخية والسير-ذاتية، ولكن، للأسف، نجد غيابا شبة تام للأدب.

إن نص جيروم فيراري **حيث تركت روحي،** يعد من النصوص القليلة التي عالجت هذه القضية، ولكن، السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، هل استطاع فيراري أن يميط اللثام عن وحشية الجلاد، أم أن اللاشعور الكولونيالي تجلى في النص انطلاقا من استراتيجيات سردية معينة.؟

L'entreprise de cet article envisage la façon, selon les textes imaginaires traitent le problème de la torture. Plusieurs approches historiques et des textes de nature autobiographique ont abordé ce thème problématique et polémique, mais, hélas, la littérature est toujours plus loin d ce projet.

Parmi les rares textes, on trouve **Ou j'ai laissé mon âme** de Jérôme Ferrari, mais la question qui s'impose dans ce contexte, est ce que Ferrari a pu dévoiler le vrai visage du tortionnaire, et selon quelles stratégies narratives l'inconscient colonial a pu se manifester dans cet univers. ?

يعكس موضوع الصورة بكيفية أو بأخرى موضوع الآخرية في العديد من المجالات التي ترتكز على ميادين البينية. لهذا شكل للعديد من المدارس الفلسفية والدراسات الأدبية التي تروم تجاوز مبدإ الأنانة لحظة تنفس، أو لحظة تحرير معرفي وأنطولوجي.

يسمى هذا الانتقال في المجال الفلسفي ببراديغم الغيرية. ابتدأه مارتن هيدغر في نقده للكوجيتو الديكارتي وطوره الوجوديون مثل سارتر في تعيين الوجود كلحظة كينونة مع الآخر، ثم جاء إمانويل ليفيناس فأضاف للغيرية نسقا تفكيريا فجعلها أكثر صلابة من حيث المعرفة ومن حيث التجذر في الدرس الفلسفي المعاصر. لم يكتف الفلاسفة الذين جاءوا من بعد ليفيناس بمرحلة تأسيس الغيرية على الأنانة بل راحوا يدرجون المسألة في فتوحات مابعد الحداثة، لأن الآخرية تقتضي بالضرورة نسف الهوية المنغلقة وطرد كل الثنائيات الحدية التي أنتجتها الميتافيزيقا الغربية الملوثة بالعقل الأرسطي الملوث بالعقل الأنواري. في هذا المجال، أي في مجال نقد العقل الأنواري بالعقل المنفتح على الغيرية اشتهر اسم بول ريكور وجاك ديريدا وميشيل فوكو.

في الدراسات الأدبية، كانت صورة الآخر رهينة مقارنة تنطلق دائما من اعتبار الأنا هوية منسجمة ومكتملة واعتبار الآخر هوية مختلفة، كذلك، في اكتمالها وانتظامها. لهذا تعد صفة الجوهرانية Essentialisme بمثابة الطبيعة التي تنتج عملية المقارنة.

لقد اتهم رواد الدراسات الثقافية الصوراتية الجوهرانية بأنها غير واقعية لأنها تترك مساحة غير مشغورة من التثاقف والبينيات والفضاءات الثالثة. لو انطلقنا من الواقع الثقافي لكي نتأكد من عدم صحة المقارنة الجوهرانية، لتبين لنا بأن قطبي المقارنة يمتازان بصفة التفكك الهوياتي والتداخل الثقافي أكثر من التباعد الوهمي. لا توجد هوية منغلقة ولا يوجد قطب صاف بل الهوية هي نتاج تلاقح تاريخي وثقافي مع هويات أخرى ساهمت في تشكلها وفق ظرفية معينة ووفق سياقات محددة.

إذا كانت التجربة التاريخية المهماز الذي تتفاعل فيه الهويات المتواشجة، فإن التجربة الكولونيالية المليئة بالعقد وجروحات الذاكرة والتنميطات وفضاءات الهجنة تعد مجالات خصبا لمعرفة تمفصلات من طبيعة خاصة تطال الهوية المنفتحة.

لم يعد موضوع الصوراتية في الدراسات الثقافية ينطلق من تمثل الآخر كهوية مختلفة تساهم في تركيز الأنا؛ بل أصبح موضوع الصوراتية دراسة التحولات الوجودية التي تطرأ على الأنا وعلى الآخر أثناء لحظات التقاطع التاريخي وأثناء عملية التواشج التاريخي. إن السياق الكولونيالي ساهم بقدر كبير في صناعة مخيال ملطخ بالتنميطات، لهذا فالسياق مابعد الكولونيالي يحاول مليا تنظيف هذا التلطيخ بواسطة مايسميه بعض الدارسين بالسردية المضادة أو بالكتابة ضد الإمبراطورية.

يحاول هذا المقال دراسة ظاهرة لا تخرج عن نطاق المقاومة الثقافية؛ إنها ظاهرة الصورة التي تعكس تماما الصورة المنمطة حول العربي خصوصا والشرقي عموما، انطلاقا من اسخيلوس إلى غاية هوليوود. لقد درج الغرب من قديم الزمان على إدراج الشرقي في خانة محور السلب لأسباب عديدة. تكثف هذا الحكم وأصبح صلدا وثقيلا مع مجيء الاستعمار بأيديولوجية عنصرية جوهرانية تلغي الآخر وتحاول احتواءه والسيطرة عليه. في زمن صناعة الإعلام أو مايطلق عليه المفكر الفرنسي روجيس دوبرييه بالعصر الميديولوجي الوسائطي (تاريخيا هو العصر الثالث بعد الميديولوجي المخطوطي والميديولوجي الكتابي) انطلقت بعض

المحاولات التي تروم تصحيح صورة الشرقي بكتابة تروم توصيف ظاهرة الصورة كلحظة تعارضية مرات وكلحظة تفاوضية مرات أخرى.

اختارت هذه المقالة نصا لمقاربة هذه الظاهرة، ونقصد بذلك نصا لجيرار فيراري "Ou j'ai laissé mon âme" لقد شكل هذا النص انتقالة نوعية في تفتيق الطابوهات داخل الجمهورية. كما تكمن قيمة هذا النص من ناحية ثانية في ملء ثقوب الذاكرة التي يمكن بواسطتها فتح حوار جديد في التاريخ المعقد بين الجزائر وفرنسا يقوم على مواجهة الذات والاعتراف بالآخر.

رواية "حيث تركت روحي": شقوق الذاكرة وأوجاع الضمير الشقي.

تحصل جيروم فيراري، الكاتب الفرنسي من أصول كورسيكية على جائزة الغونكور سنة 2012 عن رواية "موعظة سقوط روما" Le serment de la chute de Rome، قبل هذه الرواية تحصل على جائزة فرنسا التلفزيون سنة 2010 عن روايته "حيث تركت روحي". يعود سبب اختيار الرواية الثانية إلى أنها تتحدث عن الجزائر، عن جروحات الذاكرة، ببساطة لأنها تطرق موضوعة التعذيب التي لا نكاد نجد لها نصا متخيلا سواء في الأدب الجزائري أو الأدب الفرنسي.

يمكن إدراج هذه الرواية في مجال الكتابة عن **الذاكرة** La mémoire، التي تعد مجالا أدبيا مهما للكثير من النقد والكتابات الأدبية مابعد الكولونيالية. تختلف رواية الذاكرة عن الرواية التاريخية اختلاف التفصيلي عن التعميمي، فإذا كان النص التاريخي يحاول استعادة ماضي الأحداث من منظور إجماع كوني فإن نص الذاكرة يتسرب مع التفصيلات الدقيقة إلى أتون الماضي باحثا عن المهمش والمسكوت عنه ومستنطقا المضمر والمبطن.

يقول محمد الداهي عما يسمى بشعرية الذاكرة: "لا يعير المؤرخ أدنى أهمية لشعرية الذاكرة، ما يهمه بالدرجة الأولى هو التحقق من الحدث اعتمادا على أدوات

وإجراءات معينة. بالمقابل، يعتني الشعري بالاختلالات والاضطرابات الاستذكارية سعيا إلى فهم طبيعتها ووظيفتها، واستجلاء الخلفيات والأبعاد المتحكمة فيها...إن انفتاح الشعري على متن موسع يفضي به إلى تسليط مزيد من الأضواء والتأويلات على حدث ما، وتقديم معطيات جديدة عنه. ولا يتوقف عمل الشعري عند هذا الحد، بل قد يشكك أحيانا في شهادة موثوق منها"(1)

تدور أحداث الرواية عن التعذيب في الجزائر. لقد عالجت هذه القضية الكثير من الشهادات، شهادات المعذبين وشهادات الجلادين، نذكر على سبيل المثال شهادة المجاهدة جميلة بوباشا التي روتها المحامية الكبيرة جيزل حليمي وشهادة المناضل الكبير هنري علاق المشهورة بعنوان "الاستنطاق" La question وشهادة موريس أودان التي كتب عنها المؤرخ المعروف بيير فيدال ناكي، كما لا ننسى شهادة الجلاد أوساريس التي أحدثت ضجة عند صدورها.

من الكتب المهمة التي تطرقت لموضوع التعذيب في الجزائر بطريقة مباشرة كتاب "التعذيب في الجمهورية (1954-1962) La torture dans la République للمؤلف المذكور سابقا بيير فيدال ناكي. وكتاب للباحثة الجزائرية مغنية لزرق التي تعد قطبا في الدراسات الثقافية بالولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان: "التعذيب ونهاية الإمبراطورية، من الجزائر إلى بغداد".

على الرغم من أن هذه الكتب فتحت الكثير من الأسئلة حول التعذيب إلا أن كتابة نص روائي حول هذه الموضوعة سيعطي لها بعدا أكثر إنسانية بوضع الشخصيات في حالات حدية تفضح تناقضاتها وتفصح عن بواطنها. حينما نقرأ رواية جيروم فيراري نشعر وكأن الشخصيات تعيش حالات من الانشطار بسبب الضمير الشقي الذي ولد حالات من التناقض تتجلى عند الكاتب مرات في الحوارات البوليفونية وتتجلى مرات في حالات من المونولوغ الذي يقوم على مبدإ الاستبطان.

فتح فيراري نصه على شخصيتين، النقيب دوغورس والملازم الأول أندرياني. تتجلى الشخصية الأولى في النص كذات تعيش أزمة داخلية بسبب الضمير الشقي الذي ينتابها من حين إلى آخر. لقد عاشت ثلاث حروب: الحرب العالمية الأولى وحرب الهند- الصينية وحرب الجزائر. رغم أن زمن الحكي تحدد بثلاثة أيام متتالية من شهر مارس (27-28-29) سنة 1957 إلا أن الزمنين السابقين على حرب الجزائر جاءا على شكل استذكار.

يتبين من خلال الرواية بأن دوغورس له ميولات كاتوليكية، لهذا فهو يتعاطف مع كل سجين يجر إلى قاعة التعذيب، لدرجة أن أندرياني الذي كان يكن له الكثير من المحبة بسبب ماعرفه عنه أثناء حرب فيتنام أصبح يكن له عاطفة مليئة بالحق وبالشفقة، بل يكن له نوعا من الهوى،خليط بين المحبة والكراهية.

بين هذين العسكريين يفصح النص عن شخصية الطاهر الذي يشبه كثيرا شخصية العربي بن مهيدي التاريخية. لقد كان الطاهر على رأس قائمة المطلوبين عند مجموعة دوغورس، وبما أن هذا الأخير كانت وظيفته نزع المعلومات عن طريق الاستنطاق (رغم أنه لا يشارك فيه) سقط بين أيدي جلاديه شخص يطلق عليه القبائلي كان سببا مباشرا في القبض على السي الطاهر:

"لقد كان القبائلي متكئا على الجدار. لقد كان عاريا، مغلفا بلحاف وسخ. يرمق النقيب الجالس أمامه بعينيه الخضراوين.

- يبدو أنك بصدد استرجاع قواك، قال النقيب دوغورس واضعا يده على كتفه.
- تلفظ القبائلي أنينا من الألم محاولا إبعاد يد النقيب. فيرفع النقيب يده.
- لقد كنت شجاعا جدا، هل تعلم ذلك، لقد أنبهر كل رجالي، إنها الحقيقة، إنهم يحترمونك جميعا. على أية حال، لقد انتهى الأمر الآن، يبدو

أن العريف أخبرك بذلك، إننا لسنا وحوشا. يعلم الجميع أنك لن تخبرنا بشيء، إننا لن نصر على ذلك، مالفائدة؟ أنني متعاطف جدا.

يشعل النقيب سيجارة ويعطي أخرى للقبائلي.

متعاطف، مصرا على هذه اللفظة، هل تعلم لقد مررت بالأمر أنا كذلك، في سنة 1944، أنني أعلم عن ماذا أتحدث.

يرفع القبائلي كتفه فيبرز النقيب نوعا من الضحك الساخر.

- أرى أنك تقبل سيجارتي ولكن لا تتقبل تعاطفي، أليس كذلك يا عبد الكريم، إنه اسم جميل، عبد الكريم آيت قاسي، اسم حربي، مليء بالشرف، لقد كنت مجانبا للصواب أن تخفيه عنا كل هذه المدة، وكما ترى، لم يجن الأمر شيئا، كل الناس ليس لهم شجاعتك... يميل النقيب إلى الأمام: إننا لا نحب هذا العمل، ولكننا نتقنه جيداً"(2)

يختلف دغورس عن الجلادين الآخرين بالبسيكولوجيا، فهو يضغط على ضحاياه باحثا عن نقطة ضعف هنا أو هناك كامنة في أعماق النفس، لهذا كان يعتقد دائما بأن كل مستنطَق لابد وأن يكون له مفتاح ما، لا يوجد شخص يستطيع التصدي للتعذيب، يتطلب الأمر من الجلاد أن يجد المفتاح بطريقة ذكية.

إن الطريقة التي جعل بها هذا النقيب القبائلي يعترف هي الشرف، فبعدما فشل جلادوه في نزع المعلومات من عبد الكريم عنوة راح دوغورس يلعب على الوتر الحساس، على الشرف، لهذا طلب من جنوده أن يأتوه بأم وأخت القبائلي الصغرى:

"كما قلت لك عبد الكريم، لن نستنطقك بعد اليوم، ولكن سنستضيف عائلتك، لم لا نبدأ بأختك الصغرى التي تبلغ خمس عشرة سنة"(3)

في هذه اللحظة بالذات ينهار القبائلي ويدل على بيت السي الطاهر، بعدما تم القبض على هذا الأخير أقام ضباط الجيش ضجة إعلامية كبيرة، على الرغم من أن دوغورس كان فرحا لإنهاء قائمته إلا أنه شعر بنوع من الانقباض بسبب عدميته القاتلة، فبعد القبض على الرأس المدبر للعمليات الفدائية في العاصمة وبعد الوصول إلى يقينية إنهاء معركة الجزائر إلا أن هذا النقيب شعر بنوع من المواساة والطمأنينة اتجاه السي الطاهر، فهذا العدو اللدود كان يشعره بوجوده وبتناقضه الداخلي.

صور دوغورس السي الطاهر في الكثير من الأحيان في صورة المسيح. لهذا نجد العلاقة الموجودة بين النقيب والسي الطاهر علاقة معقدة من طبيعة مانوية تصل مرات إلى حد الانشطار، إن السي الطاهر هو العدو وهو القريب في الوقت نفسه. إن لهذا الانشطار معادلا موضوعيا في الواقع يتمثل في التمزق الذي يعيشه كذلك النقيب دوغورس. رغم أن الإخلاص لوطنه يعد من قبيل تحصيل المحصول إلا أنه في النهاية اشتكى بكتيبة أندرياني التي تفننت في التعذيب. يضعنا فيراري هنا في قلب فلسفته حول الشر، فكثير من الديانات والفلسفات القديمة تحاول تركيز الشر وإلصاقه بجماعة ما وبشخص معين من منظور جوهراني إلا أن فيراري يعتقد بأن الشر يكون عند الجميع، دوغورس الذي كان يعتقد بأنه في حربه ضد النازية وضد الفيتنام عرف جيدا أين يكمن الحق وأين يتواجد محور الشر ومحور الخير اختلطت عليه الأمور في حرب الجزائر.

يمكن إرجاع الأسباب المباشرة المساهمة في إنتاج هذا التناقض النفسي الحدي إلى السجل الثقافي الذي ينطلق منه دوغورس في تعيينه لفكرة الحق. إن هذا السجل ديني وعلماني في الوقت نفسه، فالمسيحية في نسختها الكاتوليكية ككل الديانات السماوية وغيرها تطالب الفرد بالاعتراف بأخطائه وتعده شجاعة لابد من القيام بها لكي تحسم قضايا الظلم. دوغورس يعترف في الكثير من

هسهساته النفسية بأن مايفعله جنوده ومايقوم به أندرياني بعيد كل البعد عن تعاليم المسيح.

أما عن السجل العلماني فدوغورس يعرف جيدا أن الجمهورية منعت التعذيب لتأسيس دولة القانون منذ الثورة الفرنسية، فهذه الثورة التي اغترفت من فلسفة الأنوار التي تروم أنسنة الحياة انطلاقا من تقعيد مبدإ الأخوة والمساواة والحرية حسمت مسألة التعذيب وجعلت القانون الناموس الكوني الذي يطبق على الجميع.

في هذه الحالة لا بد أن نفرق بين الجمهورية في الميتروبول والجمهورية في المستعمرات، فما كان يحدث في المستعمرات لا يصل إلى الميتروبول بطريقة متعمدة. لم يكتشف الفرنسيون الباريزيون التعذيب أثناء حرب التحرير إلا عندما كتب هنري علاق كتاب "الاستنطاق" وكتب بيير فيدال ناكي "قضية موريس أودان" سنة 1958.وعندما راح الجلادون يمارسون نفس تقنيات الغيستابو على بعض جماعات المنظمة السرية OAS.

لقد اقتنع مؤرخو قضية التعذيب بأن إخفاء ما كان يحصل في الجزائر المستعمرة كان سببه رفع التناقض بين الجانب النظري في الجمهورية وبين الجانب التطبيقي المفعم بالأيديولوجية الكولونيالية، لقد نشأ في الجزائر في فترة الحرب نظام بوليسي جديد وزع الإدارة العقابية توزيعا جديدا.

يقول بيير فيدال ناكي: "فعلى سبيل المثال إذا كانت المؤسسة العقابية في فرنسا تابعة لوزارة العدل، مما يسمح بضمان نظري فإنها في الجزائر تابعة للشرطة. بل يحدث مرات أنه بعدما يتم القبض على الجزائريين وبعد تعذيبهم ومحاكمتهم في محاكم فرعية وعنصرية يتم تحويلهم مباشرة على منظمة بوليسية أخرى تابعة للشرطة. لقد كان يحدث كل هذا في دوامة مغلقة"(4)

حاول جيروم فيراري في نصه أن يعتمد تقنية تداخل النصوص لكي يضفي نوعا من البوليفونية. إن شخصية دوغورس تجلت كثيرا في الحوارات وفي المونولوغ، بل كانت تبنى في كثير من الأحيان عن طريق سارد خارج الحكي مما يضفي عليها توازنا بين البراني والجواني.

لم يبن فيراري شخصية أندرياني انطلاقا من هذه التقنية، بل قولبها في صوت يتجلى في النص عن طريق تقنية الرسائل. كتب أندرياني عدة رسائل لدوغورس يعبر فيها عن حبه وكراهيته له في الوقت نفسه.

تجلت شخصية أندرياني انطلاقا من صوته الرسائلي كشخصية متزنة تجسد الذات العالمة بما تفعل منذ قتلها للجندي الإيطالي، ومنذ انخراطها في المقاومة ضد النازية وذهابها إلى حرب فيتنام. إن الأزمنة التي تجلت في رسائل أندرياني تتراوح بين زمن الحرب العالمية الثانية وزمن حرب التحرير وزمن الإرهاب الأعمى في التسعينات. يرسل هذه الملازم رسالة إلى نقيبه يبين له فيها بأن الجزائر التي تحيزت لها في الأخير ليس بخير الآن. تحاول هذه الرسائل سرد الأحداث الرهيبة التي حصلت في القرى النائية عن طريق حوار مع سائق أجرة يبكي الجزائر المستقلة التي وصل فيها الجزائري إلى قتل أخيه الجزائري بكل بساطة.

حاول أندرياني أن يربط بطريقة أو بأخرى بأن مايحدث في الجزائر أثناء التسعينات لا يختلف عما كان يقوم به جنود جبهة التحرير الوطني، لهذا حاول أن يذكر دوغورس بحادثة ماخور القصبة عندما وجد جنوده رأس بلقاسم (صاحب الماخور) مبتورا ووجدوا نساءه منحورات.

بطريقة ذكية بنى فيراري شخصية أندرياني التي تعكس الشخصية المستعمرة المشحونة بالأيديولوجية الكولونيالية، وتجلت هذه الأيديولوجية في أن الجزائري مهما كان فهو قاصر عن قيادة بلده بعيد الاستقلال لأنه لا يمتلك الأدوات والعقلانية التي بواسطتها يتسنى له التحكم في تاريخه.

حينما نقترب من شخصية أندرياني نشعر وكأننا أمام ما يسميه المؤرخ المعروف بنيامين سطورا بعبور الذاكرة(5) Le transfert d'une mémoire. فعلا حاول هذا المؤرخ معالجة القضية ببحث ما تبقى من أيديولوجية كولونيالية في خطاب السياسات العنصرية، خاصة الحزب الفرنسي بقيادة لوبان، ولكن حينما نقرا رواية فيراري فلا نجد بان ظاهرة العنصرية المولدة من ذاكرة استعمارية متواجدة فقط في المجال السياسي بل نجدها كذلك عند جماعات يمكن أن تكون خلايا ميتة عاشت مرحلة الحرب، تكبدت فيها خسائر جمة لهذا فهي تعيش الانتقام مرة والضمير الشقي مرات أخرى.

الصورة كتشكيل حكائي: لعبة التبئير واستراتيجيات التمثل

كيف تتجلى الصورة المنمطة في الرواية التي تشتغل على الذاكرة؟ حينما نعود إلى الدراسات الكولونيالية ومابعدها يتبين لنا بأن الرواية أخذت حصة الأسد في تشكيل الإمبراطورية، فالنص السردي له قدرة رهيبة على إنشاء استمرارية في الذاكرة بين تمثلات البارحة وتمثلات اليوم.

يقول إدوارد سعيد: "إن الهدف النقدي المتواري وراء فكرتيْ بنية المواقف وبنية المرجعيات المتشكلة بطريقة بطيئة في الرواية يكمن في أنه يساعدنا على تحديد استمرارية عضوية غير مسبوقة في التاريخ الأدبي بين النصوص القديمة التي تعتبر لا علاقة لها مع الإمبراطورية وبين النصوص الجديدة التي تحمل على الإمبراطورية"(6)

نفهم من هذا القول المستدل به بأن النص الروائي حينما يكتب عن الإمبراطورية يعيد لا محالة إنتاج صور ساهمت في تشكيلها وفي تثبيتها الكثير من الخلفيات التاريخية. إن هذه الصور لا تتجلى فقط في شعور النص بل يمكن أن نجد في نص ما صورا مسربة بطريقة لاشعورية. لهذا يذكرنا إدوارد

سعيد بأنه يجب ألا ننخدع دائما بالنصوص التي تبدو أليفة مع الآخر وهي تخفي ما يطلق عليه صاحب كتاب "الثقافة والإمبريالية" اللاشعور الكولونيالي.
استطاع إدوارد سعيد أن يبين اللاشعور الكولونيالي حينما درس ظاهرة صمت الأنديجان عند ألبير كامو، لقد اكتشف إدوارد بأن شخصيات كامو العربية تمتاز بميزيتين: ميزة الصمت مما يضعها في خانة مهمشي النص وميزة الذات بدون ملامح مما يجعلها تعيش انتفاء الإنسانية.
إن المهمش والمعدوم من الإنسانية حالتان تدلان على صورة نمطية تعيش الاستمرارية في الأيديولوجية الكولونيالية. فالصمت جعل العوالم الاستعمارية الروائية الكاموسية حكرا على الفرنسي من حيث اللغة ومن حيث البنية التحتية. أما انعدام إنسانية الأنديجان يبرر الغاية القصوى التي تتوارى خلفها الرؤية الاستعمارية، ويقصد بذلك ما يسمى في أدبيات الإمبراطورية بالمهمة التحضيرية.
حينما نقرا رواية "حيث تركت روحي" نلاحظ بان جروم فيراري حاول مليا كتابة نص يخترق به الإمبراطورية، إن المغامرة في الكتابة عن موضوعة التعذيب يعد ضربا من الشجاعة الكبيرة، لقد حاول فيراري رأب صدع كبير موجود في الذاكرة المتداخلة بين فرنسا والجزائر.
تبين رواية فيراري من حيث الوعي التاريخي موقفا إنسانيا من قضية شائكة وصعبة، ففي ظل تصاعد ما يسمى بالإسلاموفوبيا وانطلاقا من الواقع الجمهوري الفرنسي المتهرئ غير القادر على مواجهة تاريخه بسبب نظرته اليعقوبية، استطاع فيراري أن يفتق خطابا منكفئا على نفسه ومؤدلجا، لهذا تعد موضوعة التعذيب في سياق كهذا دعوة إلى مراجعات لابد أن تقوم بها الجمهورية في مواجهة ماضيها المليء بالطغيان والجبروت والحيف الإمبريالي.
ولكن، هل استطاع فيراري فعلا تجاوز اللاشعور الكولونيالي، هل يعد مجرد الكتابة عن أخطاء الذات تكفيرا عنها من الناحية الرمزية؟

على العكس تماما من كامو سمح فيراري للعربي أن يتكلم، ولكن الفخ الكولونيالي الذي وقع فيه فيراري يمكن في أنه لم يوزع الأصوات المتجاذبة (صوت النقيب دوغورس مثلا والسي الطاهر)(7) وفق توازن سردي بوليفوني عادل.

حينما نقرأ رواية فيراري يتجلى لنا بأن دوغورس وأندرياني أخذا كل مساحات الكلام لأننا نجد صوت السي الطاهر يظهر مرات فقط أثناء حوارات مع النقيب. إن التوزيع غير العادل للصوت، بحيث يصبح النقيب والملازم من الأكثرية البوليفونية في النص والسي الطاهر أقلية بوليفونية حوّل موضوعة التعذيب إلى قضية فرنسية صرف وليست قضية فرنسية وجزائرية في الوقت نفسه. لقد فشل فيراري في طرح مسألة التعذيب من منظور الضحية والجلاد في الوقت نفسه.

إن التقنية السردية التي جعلت رواية "حيث تركت روحي" تقع في فخ الهيمنة السردية الصوتية هي التبئير، لقد بأر فيراري نصه حول الشخصيات الفرنسية مما جعل العالم الروائي يميل إلى كفة واحدة، ويفتح سؤالا مابعد كولونياليا هو الكتابة المضادة.

يستدعي نص فيراري كتابة من الذوات المستعمَرة لكي تعالج قضية التعذيب من منظور سردي مغاير ومختلف، فنص فيراري على الرغم من أهميته الجمالية والسياسية إلا أنه لا يمكنه أن يوصلنا إلى صورة مكتملة عن التعذيب لأن نص "حيث تركت روحي" سردية أحادية الاتجاه.

الهوامش:

(1) أحمد الداهي: الشطط في استعمال الذاكرة: جروحية اللغة وبلاغة الإطفاء، ضمن الكتاب الجماعي: المقارنون العرب اليوم، ج 1، كلية الآداب بالرباط، المغرب، 2014، ص 229.

(2) Jérôme Ferrari, Ou j'ai laissé mon âme, éd, Barzakh/Actes Sud, 2010-2011, pp: 31-32.

(3) Ibid., p: 32.

(4) Pierre Vidal-Naquet, La torture dans le République (1954-1962) éd: Hibr, Alger, 2012, p: 28.

(5) Benjamin Stora, Le transfert d'une mémoire, de (l'Algérie française) au racisme anti-arabe. Ed: Casbah, Alger, 2000.

(6) Edward W.Said, Culture et Impérialisme, tr: Paul Chemla, éd: Apic, Alger, 2011, p: 129.

(7) الوقفات السردية التي ذكر فيها السي الطاهر في إطار حواري: ص39-46-77-83-93-96-142. مع العلم أن مجموع صفحات الرواية هو 153.